محاورة أفلاطون الخيالية
حول التربية الانجليزية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد .

— ٣ —

المحاورة خيالية بين الفيلسوف أفلاطون وبين أحد المربين الانجليز . وقد دارت فى المقالين السابقين حول نظام التربية فى انجلترا والغاية منها ، تلك الغاية التى يوضحها المربى بأنها إعداد الفرد ليشترك فى الحكومة الديمقراطية بطريق انتخاب رجال الحكم ، وأعضاء المجالس النيابية . وهذه التربية — كما يقول المربى الانجليزي — تجربة فى الحكم الذاتى ، أى حكم الشعب نفسه بنفسه . ويرى أفلاطون أن تربية الشعب عامة محدودة ولا تكفى لاقتداره على الاشراف على تصرفات الحكومة ، وسياستها الداخلية والخارجية . ولكن المربى يقرر أن نظام التربية فى انجلترا يسمح لكل فرد أن ينال خبرة مهنية فنية ، وأن يصيب من الثقافة العامة مايمكنه من معرفة شئون السياسة العامة للأمة . والفرص متاحة لكل من تؤهله مواهبه الطبيعية لأى نوع من أنواع التعليم أولياً كان أو ثانوياً أو جامعياً . وهنا يقترح أفلاطون أن تترك مقاليد الحكم للجامعيين ، وحملة الشهادات العليا ، لما هم عليه من ثقافة فلسفية وعلمية . بيد أن المربى لا يشاركه الرأى ويقول : إن الحياة هى جامعة الجامعات ، وأبواب المناصب مفتوحة لكل من تزكيه كفايته وخبرته لأيها ، سواء أكانت من أبناء الجامعات أم من غيرهم .

أفلاطون : لا شك أنك ستجد ضرورياً أن تفرق بين نوع التربية الملائم للرجال المسئولين ، وذوى التبعات الوطنية ، وبين نوع التربية الملائم للصناع والعمال . فتربية الأول هى تربية ثقافية عالية ، بينما تربية الآخرين تربية فنية مهنية .

المربى : أنا لا أومن بهذا الرأى . إننا نعتقد فى بلادنا أن كل فرد يجب أن ينال نصيباً آخر من التربية غير تلك التربية الآلية التى تعده للمهنة أو الصنعة ، لأن كل الأفراد قد مُنحوا صفة البشرية ، وصفة التعقل والإدراك ، ولهم قوى كامنة يمكن أن تتقبل الثقافة والحكمة . ولهذا يجب أن ينال كل فرد إلى تربيته المهنية تربية ثقافية عامة .

أفلاطون : ولكن أتسمحون بهذه التربية الثقافية العامة للموهوبين وغير الموهوبين على السواء ؟

المربى : كلا . هذا مستحيل ، أولا لأن السواد الأعظم من تلاميذ المدارس يكتفون بالتعليم إلى نهاية المرحلة الأولية ، أعنى إلى سن الرابعة عشرة ؛ وثانياً لأنه ليس كل الأفراد صالحين للتعليم الجامعى .

أفلاطون : إننى موافقك على هذا بكل قواى . إن الطبقة قليلة الذكاء من أبناء الشعب والتى أسميها العامة فى « مدينتى الفاضلة » ، لا تفهم الفلسفة ولا تتمتع بها . والأفراد القلائل منها الذين يتذوقون طعم الفلسفة يخدعهم أول أفاك يقابلون ، أو متعلب ، أو متدين محتال يستولى على قلوبهم بعبارات الدين الخلابة . إن ذوق العامة يميل دائماً إلى الدون من كل شىء . ولا يفرق بين التكحل والكحل ، ولا بين الحقيقة والخيال . وهذا هو ما دعانى لأن أحظر على العامة دراسة الحقائق والعلوم الفلسفية ، وأن أقصرهم على الأساطير ، وأحاجى الآلهة ، والأقاصيص الخيالية . تلك الأشياء التى أسميها « الأكاذيب النبيلة » ، والتى يجب على الحكومة أن تهيئها للعامة لترضى رغبتهم الملحة فى التشقيف والتنوير ، ولتمدهم بشىء يتحدثون عنه وتلوك ألسنتهم ، حينما يجلسون ليقتلوا أوقات فراغهم . ولقد سمعت بأمة مجاورة لكم قد عملت وزارة للدعاية وتنوير العامة . وكم أفهم هذا الخبر قلبى سروراً ، لأنه يدل على أن من بين أعضاء حكومة هذه الأمة من يقدرون الأخطار التى تنجم عن ترك العامة يطعمون أخلاط الثقافات والآداب والموسيقى لا فرق بين غثها وسمينها ، فتؤثر هذه الأخلاط فى نفوسهم ، وتحملهم على الثورة وسوء النظام

المربى : أحسب أنك لا تمتاز كثيراً عن الفاشستى ! كيف تحل هذا النوع من الدعاية الحكومية التى يقصد بها استرقاق عقول الناس ، وحقنهم بالأكاذيب ، والأخبار الموهمة ؟ إن هذا لهو القضاء النهائى على الحرية

أفلاطون : وهل يتمتع حقاً أبناء شعبك بالحرية ؟ أليسوا هم أيضاً أرقاء للأكاذيب والأخبار الفجة التى يطالعونها كل يوم فى الصحف ، وفى السينما ، وفى القصص الروائية ، ويسمعونها من الخطباء فى الأندية والنقابات ؟

المربى : يجب أن أعترف بكراهيتى لهذا النوع البخس من الصحف اليومية التجارية ، ولهذا النوع الدون من إنتاج السينما . ولكن لا تنس أن الإنجليزى حر مهما كانت الحال ليختار لنفسه ، فهو ليس مجبراً لأن ينصت لجانب واحد من الدعاية ، بل له أن يسمع كل الآراء والقضايا ، ويكوّن هو بعد ذلك حكمه الخاص

أفلاطون : لا تعجل فى تهنئتك . أنت تقول : إنه حر الاختيار ، فكيف يتسنى له هذا إذا لم يكن عنده مقياس للاختيار ، ولم يكن له المحك الذى يميز به الزيف من الصحيح ؟ من المؤكد

أنه لا يستطيع الاختيار . ولذلك فهو يقف زائغ الفكر متحيراً ، قد بهرته أسراب الخيالات التي تطن في أذنيه طنين النحل ، حتى لا يدري أواقف هو على رأسه أم على قدميه . صحيح إن سماع أخلاط من الأخبار الموهمة أكثر إمتاعاً من سماع خلط واحد ، ولكني لا أستطيع أن أفهم لم تدعى أن الفرد في الحال الأولى حر ليختار وفي الحال الثانية رقيق يقبل كل ما يسمع . إن حقيقة الأمر هي أنه ما دام الفرد لا يستطيع التمييز بين الزيف والصحيح فليس بحر ، سواء أكان هذا الفرد انجليزياً أم ألمانياً أم آسيوياً

ولذلك فإنني حينما أفكر في نظام التربية القائم عندكم ، والذي تقولون عنه إنه تجربة في الحكم الذاتي ، لا أجد شيئاً من هذا الحكم الذاتي المزعوم ، لأن هذه التربية التي تبالغ في حمدها لا تجعل العامة أحراراً ، ولكنها تبعث على الغرور والادعاء في نفس متلقيها . والنتيجة هي أن هؤلاء العامة الذين تلقوا هذه التربية قد أصبحوا أكثر تعرضاً لخطر تجار الثقافة والمعارف ، وأعني بهم أولئك الدجالين الذين يخدعون العامة بمقالاتهم الطنانة وإعلاناتهم الثقافية لابتزاز المال ، لا من أيدي الصناع والعمال ، بل من أنصاف المتعلمين . والدليل على قولي هذا بسيط . فلو كانت تربيتكم صحيحة حقاً لما ظل في بلادكم هذا النوع من تجار الثقافة ، بل لضاقت عليهم الأرض بما رحبت فهاجروا إلى بلاد أخرى . أما وهم لا يزالون بين ظهرانيكم فهذا دليل على أن التربية القائمة عندكم لا تكوّن المناعة الكافية ضد تجار الدين والثقافة والعلوم

وشبيه هذا ما يحصل في ميدان السياسة . فالجمهور لا يستطيع طبعاً أن يفكر في شئون السياسة تفكيراً سليما . وهو يظن زعماً أن تربيته قد كونت منه سياسياً مفكراً ، هذا الظن الذي يجعله أكثر خضوعاً لأنواع الدعاية والإعلان السياسي . ويخيل إلى أن كل صانع أو عامل نال شيئاً من التربية العامة الأولية يعتقد أنه قدير على الفصل في الأمور التي ليس له فيها تجربة أو معرفة

إنك تدرك معي الآن أنه من السهل على أي خطيب من خطباء السياسة ملء الجيب وحاد اللسان ، أن يخرج على الناس بمشروعات ضخمة يخدع بها أنصاف المتعلمين ، فيرضي فيهم الميول الطائشة ، ويستولي على مشاعرهم بإثارة عاطفة الادعاء فيهم ولقد حدثت عن أنواع السفسطائيين الذين يحتالون باسم الثقافة والعرفان ، والذين يعيشون بينكم ناعمي البال . وأعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر أن هؤلاء إنما يرتعون في أموال المتعلمين من أبناء جنسك . على أن هذه الحال إن دلت على شيء فإنما تدل على أن النفس البشرية لا تخضع دائماً للحقائق والمعارف الصحيحة التي تقدم لها في المدارس والمعاهد ، وإنما تجنح إلى شيء آخر : إلى الخيال والكرامات والمعجزات . وتقبل — كلما سنحت لها الفرصة — الخرافات والخزعبلات ، بدلاً من أن تتقيد بقوانين العلم وأسس المعرفة الصحيحة . وذلك لأن الحقائق ليست حلوة المذاق دائماً ، وليس لها تلك الجاذبية التي للدعاوى الخادعة

من أجل هذا كله أرى لزاماً عليكم أن تكونوا حذرين فيما تعملون لأجل سعادة أمتكم وصلاحها . لأن التربية المحدودة تجعل الفرد يخدع نفسه بنفسه ، ويظن أن المعارف أمر سهل المنال ، وأن أبوابها مفتحة لكل من قرأ كتاباً أو سمع محاضرة

وهذا ينطبق أيضاً على الديمقراطية عندكم . فإنني أخشى أن تكون هي الدكتاتورية التي تكرهونها ، ولكن في ثوب الديمقراطية ، فيخدع العامة بما يقول مروجوها

وفي ظني أن قادة الرأي عندكم ليسوا أحراراً أيضاً فيما يقولون ويعملون فمحررو الصحف، وواضعو الأفلام ، والخطباء، ورجال السياسة ، والناشرون ، كل أولئك ليسوا أحراراً يعملون ما يشاءون ، ولكنهم خاضعون لميول العامة وذوقهم ، حريصون أن يقدموا لهم ما تستسيغ حلوقهم

المربي : لقد تحقق ظني فيك ، فقد حسبتك فاشستياً من طليعة حديثك . والآن أصبح الحسبان يقيناً ، فأنت لا حرمة عندك للجماعة البشرية، وليس في قلبك حدب عليها ولا حب لها. أنت تريد أن تسيطر على كل فرد ، وأن تجعله يعتقد ما تعتقد . وإنني أؤكد لك من الآن أنك لن تجد من يعطف عليك في بلادنا ولا من يشاركك الرأي

أفلاطون : إن ما تقول لجائز ، ولكن اعلم أني غير راغب في إخفاء الحق رغبة مني في عطف أهل بلادك علي ، ومع هذا لا أعتقد أنهم سيكرهونني كما تفكر ، إنهم أعقل مما تظن

المربي : إن ما أستطيع استنباطه من حديثك هذا هو أنك تريدنا أن نرجع إلى الوراء ، إلى الزمن القديم ، زمن جهالة العامة وحكم طبقة الأقلية الخاصة ، زمن مدارس أولاد الأعيان[1]

أفلاطون : كلا . أنا لا أريدكم أن ترجعوا إلى الوراء ، وإلى

(١) Public Schools